اطار تمهيدي لدراسة

أدب المذكرات في تونس

بقلم محمد مصمولي

١ ـ ادب المذكرات في تونس (*) جزء لا يتجزأ من ادب المذكرات العربية عموما ، بل من أشدها قربا الى المفهوم المعاصر لهذا النمط من التدوين الكتابي الذي انفرد به ادباء الغرب ايما اتقان ، واصبح يتبوأ مكانة ممتازة تهم القارىء والناقد على حد سواء ، استهلاكا جماهيريا ، وسعة رواج ، واثارة لاهتمام نقاد الغرب لما تتيحه لهم من كشوف ، ولما تفتتحه امام نظرائهم الفاحصة من نوافذ في منعطفات التحاليل الادبية والنفسية والاجتماعية ، وتعاريج التأويل النقدي ، وعتمات الابهام الفني ... اذ لا يخفى ان الكاتب في لحظة « تحويل الدم الى حبر » ـ وهذه العبارة عبارة (اليوت) ـ يكون كائنا على المسرح ممثلا وجمهورا ، « جريحا وسكينا » ، جلادا ومحكوما عليه ، تداخلا بين افنعة الحقيقة واقنعة الفن . وهذا يعني ان الفن ذاتية في موضوعية حتما ، لان الفنان على درجات متفاوتة من ممارسته لادوات ابداعه ، وبالخصوص بعد تجاوزه لكتابه الاول ، وبعد اتقانه لقوانين اللعبة ، يخلق مسافة وبعدا بين شخوصه وذاته ، مع مزج وصهر للكل في بهلوانية وتجريب ومعاناة ، وفي تناغم بين اصدائه الباطنية واشباح وافنعة ـ ولولا هذه اللحمة والانصهار لما كان « جوته » ، « فاوست » و (ميفيستوفيليس) في الآن الواحد ، ولما كان « فلوبير » (١) ما دام بوفاري و (فلوبر) معا ولما كان مونترلان Henri de Montherlant يرد على النقاد بالنفي حين ذهبوا في تأويل بعض شخصياته الروائية الى ضروب من الوهم لا اساس لها اطلاقا من الصحة . ذلك ان رجال الدين الذين ابدع في تصويرهم هذا الكاتب الفرنسي لا يمثلونه بالضرورة كما توهم بعض النقاد ولان النجاح في رسم ابعادهم لا يعني ان « مونترلان » متشبع بالضرورة بالاحساس الديني ـ والا بماذا نفسر نجاح « مونترلان » في رسمه لنماذج من بني آدم هم على النقيض تماما من رجال الدين ؟

من هنا ، كان هذا الاقبال الى حد التهافت من نقاد الغرب المعاصرين على مذكرات الادباء وتشريحهم بواسطتها لادب الكاتب في حذر وذكاء ، مع تحليل ومقارنات وتحقيق ومراجعات للمسافة والبعد بين الكاتب الانسان في حقيقته اليومية الخالية من جل أقنعة الفن ومقتضيات احوال الابهام الفني وبين الاثر الابداعي في التواءاته ، وتوتره وتعاريجه ومنعطفاته .

والمذكرات من زاوية الاديب ليست دائما شبكة لاصطياد الجمهور ونقاده بطريقه اكثر ذكاء من اقنعة الفن ، وليست دائما تبريرا لسقوط في الخط التصاعدي ، او لاخطاء في الانتماء السياسي او الاجتماعي او الادبي . كما أن المذكرات ليست دائما تصفية حساب مع عصر كامل او جيل من الاجيال ، وانما منها ما يكون بحثا عن الذات وتحليلا لنموها ودراسة صارمة لارهاصاتها وتفاعلها مع العالم الخارجي كما فعل اندرى جيد في بعض « كناشاته » ـ بل قد تكون المذكرات تفاعلا مباشرا مع انتاج الكاتب . فهذا (جيد) في « مذكرات مزيفي النقود » يتحاور مع بعض انتاجه ، وهذا سولس بروديوم يحيل مذكراته الشخصية الى مادة خام لقصائده ، وهذا كيسرلينغ في كتابه « مذكرات رحلة فيلسوف » يقول لنا ان هذه المذكرات تتضمن بذور كافة انتاجه المقبل .

بازاء هذا التنوع الذي لا يكاد يقع تحت حصر في طريقة صياغة المذكرات ، ونظرا لتكيف هذه المذكرات بأمزجة الادباء وبالضغوط الخارجية وبغيرها من عوامل ، لم يقف نقاد الغرب من هذه الآثار المشعبة موقف الحيرة وانما قاموا بعمليات التصنيف والتبويب والتشريح لمادة المذكرات مستخدمين في ذلك كافة ادوات العلوم الحديثة . وبذلك تمكنوا من السيطرة النسبية المتطورة على هذا الفن المتحرر من القيود الفنية بقدر خضوعه لشخصية الفنان في ادق خصائصها المميزة .

فالمذكرات في نظر الدراسات الغربية ليست كل ما يكتب بالضرورة تحت هذا العنوان ، وهي لئن فصلت وأطرت في اصناف ، قد تكون في الآن نفسه مذكرات مختلطة (Journal mixte) شاملة لنوعين فاكثر كما انها ليست دائما وبالضرورة بقلم الاديب وانما قد تتخذ طابع « الشهادة » وتصبح (مذكرات ـ بواسطة) كما هو الحال بالنسبة للشاعر الفردي موسيه الذي كتب عنه شقيقه في الرد على جورج صاند ، او كما هو الحال بالنسبة لفكتور هيغو وتولستوي وقد كتبت عنهما زوجتاهما ، او بالنسبة لشاعر البحيرة (لامرتين) الذي تحدثت عنه امه او بالنسبة للاديب اللبناني جبران خليل جبران الذي كتبت عنه امرأتان من اميركا ، ومذكرات الاولى « بربارة يونغ » ، قد نشرت اما مذكرات الثانية (ماري هاسكل) ـ وهي الاهم ـ فما زالت مخطوطة الى الان ولم يهتم بها الا عربي واحد وهو « توفيق

(*) فصل من كتاب للمؤلف تحت عنوان (ادب المذكرات في تونس).

(١) فلوبير عندما قال : « Madame Bovary C'est moi »

صايـغ » (٢) .

والا .. كيف يمكننا ان نصل مباشرة الى مـا كتبه في زمن ما بين الحربيـن بونس صاحب « جولة بيـن حانات البحر الابيض المتوسط الساعـر والقصاص والكاريكاتوري علي الدوعاجي ، وما كتبه قبلـه الشاعـر والصحفي صاحب (مذكرات المنفى) محمود بيرم التونسي ، وما كتبه قبل هذا الاخير وقبل الذي قبله الشاعر الكبيـر الذي لـم يمض الا ربع قـرن فقط في عالم الناس واعني به ابا القاسم الشابي؟

يقينا ان معرفـه الجزء لا تاتى الا بنظرة سابقـه لهـا على الافق العام لادب المذكرات العربية ككل . هذه المذكرات التي تفرض عليّ شخصيـا لدى التصدي اليهـا ضربا من العبوس الاكاديمي الذي قد يتماشى مع طرائـه مقصى الحال الذي لم يهم النقد العربي قط وانما ابتعده طويـلا وكان نقادنـا المشارقـة والمغاربة قـد استخفوا بمـا لادبنا العربي في باب التراجم الذاتية والمذكرات الشخصيه من كنـوز ولما يبيحـه كشف تلـك الكنوز مـن فرصة الفاء « الضّوء اللامع » علـى ادبنا القديم والحديث وهـو ادب يحتاج الى قراءة حديثه وتحليـل معاصر .. وطبعـا ، المقصود مـن اشارتي الى « الضوء اللامع » ليس كتاب المذكرات الحامل لعنوان « الضوء اللامع » والذي فاخـر فيه الشيخ محمـد عبدالرحمن السخاوي منذ قرون بعدد من مشايخه في فـروع العلم والتعلم وانمـا المقصود هـو أن يتسلح نقادنا العرب بكافـة وسائل البحث العلمـي ليغتلـوا التراث بحثا وتشريحـا وشرحا بعد تنظيفه من غبار الاهمال وقداسـة الارث المحفوظ المعلّب (وقـل التراث بحتـا يعني احياء التـراث) .

ـ ونتيجة لوجود تراث متراكم من تراجم فلسفيه وصوفيه كالتي كتبها محمـد بن زكريا الرازي ، والغزالي والحـــارث المحاسبـي .

ـ ونتيجة لوجود تراث متراكم لتراجم وثائقية كالتي كتبهـا ابن سينا ، وابن رضوان المصري ووصف فيها كل منهما تاريخ حياته وتتلمذه وتفكيره الـخ .

ـ ونتيجة لوجود تراجم ذاتية مال فيهـا اصحابها الى تبريرات لاشياء وقعت او تقط تحول طرات كالتي كتبها السموأل بن يحيى المغربي في اقحام اليهـود ، بعد اعتناقه للاسلام . وكالتي كتبهـا حنين بـن اسحق في تفسير ما اصابه من « اعداء الامتياز » الذيـن اوقعوا بـه وكادوا لـه عند الخليفـة حتى كـاد يسافـر بلا تأشيرة الى العالـم الآخـر ..

ـ ونتيجة لوجود سخافات من المذكرات من نوع ما حفظه لنا ياقوت في « معجم الادباء » تحت عنوان « مشارب التجارب » هذا الكتـاب الذي حاول فيـه الشيخ علي بن يزيد البيهقي (المتوفي سنة ٥٦٥ هـ) ان يثبت لنا فيه نسبه بأبينـا آدم .. وقـد اوهى أمر هذا الشيخ شيخ من عصره وطرازه وهو الشيخ احمد بن علي بن المأمون (المتوفي سنـة ٥٧٦) حين قام بنفس الرحلة « معرجا على المأمون الخليفة فـي طريقه الى آدم » .

ـ ونتيجـة لوجود ما اعتبره الاستاذ عبدالرحمن بدوي : « اسمى صورة للتراجم العربيه » ويعني بهـا تلـك التي ظهرت في القـرن الثامـن على يـد لسان الديـن بن الخطيب (المتـوفي سنة ٧٧٦) ومعاصره الاصغـر منه ، عبدالرحمن بن خلدون (المتوفي سنة ٨٠٨) » (في الترجمتين حديث حول النشاط السياسي الـى جانب النشاط العلمي والعقلي) وهذا النوع من المذكرات هو ما اصبح يسمى في الغرب بالمذكرات السياسيه ولكنها في الآن نفسه شاملـة لنوع آخـر مما يجعل منهـا مختلطـه mixte على نحـو ما نجـد عند جوليان غريـــن وسويفـت Swift وغوت Got وغيرهم .

نتيجـه لوجود ما اسلفنـا ذكره من تراث نقابل عنه نقادنـا فـي الشرق والغرب ابتداء من جيل الرواد الى يوم الناس هذا (ونحن نلوم الاخير زمانهم « دون اعفاء رواد نهضته الادبيـه الحاليـه الذيـن مارسوا كتابه المذكرات الشخصيه ولم يمارسوا نقدهـا كمـا فعـل العقاد فـي كتابه (انا) ، واحمـد امين في مذكراتـه (حياتي ، وميخائيل نعيمه في (سبعـون) وغير هؤلاء كطه حسين في كتاب(الايام) الـذي تحدث فيه بصيغـة الغائب عوض صيغـة المتكلم على نحو مـا فعل بعض كتاب فرنسا وقبلهم صاحب كتاب « ذيل الروضتين » ابـو شامة (المتوفـي سنة ٦٦٥ هجريا) .

نتيجـة لذلك كـان على تلـك التراجم العربيـة ان تنتظـر مستشرقـا المانيـا هـو الاستاذ ـ فرنتس روزنتال Franz Rosenthal الذي نفض الغبار عـن التراجم الذاتيـة الاسلاميـة في فصل طويـل له بمجموعة الابحاث الشرقيـه سنـة ١٩٣٩ لخص فيـه اهم التراجم في مرحلة سبعـة قرون ابتداء من القـرن الثالث الهجري وتحدث عـن النماذج التي احتذاهـا المؤلفون في العربية . فقال ان هذه الامثلـة اتت الى العالم الاسلامي من مصدرين الاول يوناني والآخر فارسي. ونحن من خلال « تلخيص التخليص » الذي نفصل بالقيـام به الاستاذ عبـد الرحمـن بدوي في اعتمـاده على النص الالماني للفصل المذكور ، نقـدم اربـع ملحوظـات :

اولا : دراسة « الاستاذ روزنتال » أثبتت للعرب ان لهم مذكرات شخصية هامة يمكـن ان تدرس باعتبارهـا فنـا مستقلا بذاته خـلافـا لما كـان يعتقـده الدارسـون العرب والكلاسيكيون منهم بالخصوص من ان التراجم الذاتيه مجرد هوامش .

ثانيا : العيب الوحيد في هذه الدراسه الفريدة من نوعهـــا والهامة الى اقصى حد انهـا كتبت في سنـة ١٩٣٩ في حين ان دراسة هذا الفـن قـد تطورت حاليـا في اوروبا تطورا مدهشا ولهذا فقـد اصبحت هذه الدراسة قابلة للنقاش على ضوء المفاهيم الاصطلاحيـة الحديثة لادب المذكرات . وهذا يعني أن على العرب ان يترجموا فصل الاستاذ فرنتس روزنتال من الالمانية لاعادة كتابته ولاعادة تصنيف وتبويب التراجم العربيـه والشروع في اعداد « انثولوجيات » معاصرة مـع محاولة ايجاد خط تصاعدي في تطور هذا الفن الى يومنا هذا ..

ثالثا : ما كتبه عبدالرحمن بدوي في كتابه القيم «الموت والعبقرية» عمل هام ولكنه قد تجاوزته الاحداث وذلك لاحكامه الاخلاقية المثالية التي اطلقهـا على هذا النـوع من التدوين الكتابي الذي ينبغي ان تقال فيه الحقيقـة عارية الى اقصى حدود العري ، وان تسقط فيه الاقنعـة والبراقع .. وان ينسى فيه الكاتب المقتضيات الفنيـة وجثة الجمهور المعلقـة عادة على قلمه عندمـا يخاطب الناس في قصة او قصيـدة او مسرحيـة بذهنيـة القارىء او بذهنيـة التأثير الفني على القارىء.

رابعا : من خلال الخطوط العامة لدراسـة « الاستاذ روزنتال » والاستنتاجات الشخصية التي استنتجها عبدالرحمن بدوي ، قد نستطيع منذ الان ان نكـوّن فكرة غير نهائيـة حول المذكرات العربيـة من القرن الثالث الى العاشر هجريا فنقول ما يلي :

المذكرات عند العرب قلّ ان كانت تحليلا للذات ولتعقيدات (الذات) كما انها قلّ ان كانت مسألـه بيـن الكاتب ونفسـه اي ضربـا مـن التدوين الذي يقصد منه محاسبه الذات بشكل تلقي فيه تماما فكـرة القارىء او تسبر فيه ذات الكاتب في صراحـه عارية سافرة . وهـذا الرأي يصح حتى في مذكرات رجال التصوف ورجال الدين ولعل ابرز مثال لهؤلاء « الغزالي » في الطريقـة التي انهى بها تجربته وهي طريقة شبيهـة كما لاحظ عبدالرحمن بدوي بطريقـة الحارث المحاسبي ولهـا

---

(٢) التعريف بأدب المذكرات في تونس ـ مرحلة ما بين الحربيـن العالميتين ـ هـو في الواقع كالتعريف بأدب المذكرات في لبنان ، او بمصر ، او بسوريا ، او بالجزائر ، او بغيرها ، وحرج من يتصدى الى هذه المبادرة كحرج من يقترف المرور من ارض الى اخرى او من زمـن الى آخـر بدون جسر او سجادة طائرة او بدون خيال المعري ودانتي في وقـت واحـد .

طبعا تبريرها الموضوعي وملابساتها التي لسنا الان بصدد البحث فيها .. ومن جهة اخرى ، كافة المذكرات العربية قد كتبت لغرض ارشادي مثالي ولم تكن وليدة رغبة مجانية او خاصة كشن معركة بين الاحساس بالعجز على تغيير الواقع وبين الطموح الى تحويل القيم الى تجسيم : أو كتأمل في عزيز فقد أو حبيب اختطفته يد المنون (تجربة الخنساء مثلا بعد فقدانها لشقيقها « صخر » قد وجهت قريحة هذه الشاعرة الى الافراط في تحدي حقيقة الموت استحضار الميت بواسطة القصيدة هذه التجربة مثلا قد عاشتها الكاتبة « مانسفيلد » K . Mansfield بواسطة المذكرات بعد فقدانها لاخيها وكذلك قد عاشها الكاتب نوفاليس بعد فقدانه لخطيبته صوفي)

وما قيل عن اللهجة والمضامين والطابع والغايات يمكن ان يقال عن نظرة العرب النقدية طوال العصور الى هذه التراجم الشخصية الفاقدة للوعي باستقلالية هذا الفن عن بقية اغراض الكتابة الاخرى .. فنحن الى يوم الناس هذا ، قلّ ان وجدنا نقادا نظروا الى المذكرات الشخصية وفق مقاييس خاصة وبوصفها (أي المذكرات) فنا خاصا مستقلا عن بقية فنون التدوين .

٥ ـ ادب المذكرات في تونس في « مرحلة ما بين الحربين » كان نقطة تحول مفاجئة في تاريخ التراجم العربية وتمهيدا غير مباشر للتطور الذي اصبح يحياه ادب المذكرات العربية . في كافة اجزاء العالم العربي وبالخصوص في المشرق على ايدي رواد النهضة الادبية امثال طه حسين ، احمد امين ، العقاد ، ميخائيل نعيمة ، توفيق الحكيم . ثم على ايدي اميين نخلة ، الشناوي ، السباعي . وكل هؤلاء دون استثناء قد تفننوا في كتابة المذكرات الشخصية بعد الشابي والدوعاجي وبيرم التونسي هذا الثالوث الادبي التونسي الذي لم يعرف العالم العربي عن مذكراتهم شيئا ، ولم يكتب عنهم شيئا باستثناء تعليقين سريعين بمجلة (الفكر) وذلك بعد تعليق سريع ايضا اثبته الدكتور فريد غازي في كتابه « الرواية والاقصوصة في تونس وهو تعليق مقتضب على مذكرات القصاص علي الدوعاجي الذي اعتبره الدكتور غازي رائد فن الاقصوصة في العالم العربي اثر مقارنة بين تكنيك « عين الكاميرا » الذي استعمله هذا القصاص في مرحلة « ما بين الحربين » والنزعة الاخلاقية الموجودة في الاقصوصة العربية عموما في تلك المرحلة .. كذلك يرى الدكتور ان الدوعاجي يمكن تشبيهه من بعض الوجوه بجون دوس باسوس وبجاك لوندن و« جيروم » .

وهذا الصمت الذي قوبلت به المذكرات التونسية والشرقية لئن كان من السهل تفسيره بما أسلفنا ذكره من استخفاف النقاد العرب عموما بفن ادب المذكرات فان المسالة بالنسبة لمجهولية ادب المذكرات التونسية لدى التونسيين انفسهم يمكن تفسيرها باضافة عناصر اخرى اهمها اوضاع النشر والتوزيع ، ثم وبالخصوص مسالة الاهتمام بالشابي بوصفه شاعرا والتغافل عن بقية جوانبه التي نعتبرها نحن من الاهمية بمكان . ذلك ان الشابي الذي جدد في الشعر قد كان في نظرنا ومن الزاوية التاريخية مؤلف احد الكتب النقدية الاربعة التي مهدت لتطور الادب العربي المعاصر ونعني بها كتاب « في الشعر الجاهلي » لطه حسين ، كتاب « خصائص الهشيم » للعقاد والمازني ، كتاب « الغربال » لميخائيل نعيمة وكتاب « الخيال الشعري عند العرب » للشابي ولا ينبغي ان ننسى ان هذا الكتاب الاخير قد صدر سنة ١٩٢٩ وكان مؤلفه في ربيعه او خريفه العشرين فقط . ومع ذلك فقد كان محاولة من أكبر محاولات النقد العربي « الطليعي » في ذلك العهد .

بخصوص الدوعاجي وبيرم فان التونسيين وغير التونسيين لم يدرسوا مذكرات هذين الاديبين بسبب « تأطير » الاهتمام وصبه في الناحية القصصية بالنسبة للاول وفي الناحية الصحفية بالنسبة للثاني مع التغافل او نسيان جوانب اخرى لهما . وبالمناسبة لا سبيل لحصر ما أهمله النقاد التونسيون وغير التونسيين من جوانب جد هامة في ادبنا التونسي قديما وحديثا لان مجال ذلك ليس مجال هذا البحث ..

والان كيف كانت المذكرات التونسية نقطة تحول مفاجئة في تاريخ ادب المذكرات عند العرب ؟

للاجابة يمكن ان نقول ما يلي : التراجم الذاتية كانت على اختلاف أنواعها كتابة الغاية منها تنحصر في نقطتين وهما اما لتبرير أحداث سياسية أو علمية عاشها المؤلف او الارشاد الديني او الاخلاقي أو الثقافي بواسطة تجربة عمر في العلم او في التأمل الديني كما فعل ابن سينا والغزالي وغيرهما ..

ثم خلافا لذلك نقرأ أولى المحاولات الجديدة التي قام بها كتاب النصف الاول من هذا القرن فنجد في مقدمتها وابتداء من فترة «ما بين الحربين» ثلاثة أدباء تونسيين يكتبون ثلاثة أنماط من المذكرات على غاية من المعاصرة والجدة ووفق مفاهيم مغايرة تماما للتراث ، وهي نفس المفاهيم تقريبا لتلك التي وجدها قراء العربية فيما بعد حين بدأ رواد النهضة صياغة مذكراتهم على نحو ما فعله طه حسين وأحمد أمين والعقاد وتوفيق الحكيم وميخائيل نعيمة وغيرهم ...

فهذا الشابي منذ فراغه من القاء جام تمرده النقدي في كتابه « الخيال الشعري عند العرب » يأخذ القرطاس والقلم ، ويجلس في سكون الليل ليفكر ويستعرض « رسوم الحياة الخالية التي تناثرت في شريط » « لياليه وايامه فينظر » الى غيابات ماضية ، ويحدق بظلمات الابد الغامض الرهيب .

واذا بالمذكرات العربية ابتداء من «الشابي» تأخذ منعرجا جديدا، فاذا « بالجانب الشخصي » الذي كان غائبا في كافة التراجم الذاتية العربية يصبح « بيت القصيد » واذا بالمذكرات تصبح تحليلا للذات في نبضها الساخن وفي ارتعاشها امام الحياة والموت ، وفي لحظات « تشوفها الى الصباح الجديد » وفي لحظات انسحاقها أمام «سوقية» الرتابة اليومية الخالية من المعنى وامام المنطق « الافقي » اللامنطقي لتسلسل الاحداث العادية .

« والشابي » عندما حوّل المذكرات العربية الى تحليل الذات، قد أحدث ثورة كبرى في هذا الفن العريق الذي هو « المذكرات » لان هذا الفن كان ـ كما رأينا ـ تلخيصيا خشنا تختنق فيه الذات أمام الاستعراض التراكمي لانجازاتها « الايجابية » الهادفة التي كان يقصد بها المؤلف العربي القديم التفاخر بمشايخه أو بتخطيه للعراقيل او يفتخر بحصاد مطالعاته وتآليفه ، فهذا الفيلسوف محمد بن زكريا الرازي يدفع عن نفسه تهمة وجهها اليه خصومه والمتمثلة في ابتعاده عن مثله الاعلى «سقراط» . وهذا ابن الهيثم لم يكتب مذكراته الا ليحدثنا في « مقالة له فيما صنعه وصنفه من علوم الاوائل » وهذا حنين ابن الاسحق ما كان ليتحدث عن « المحن والمصائب » التي أصيب بها الا ليكشف عن مكائد حساده ، وهذا « المحاسبي » لم يترك للناس « نصائحه » الا ليريهم كيف انتهى الى الايمان ، وهذا الغزالي يقتفي أثر الحارث المحاسبي فيحدثنا عن تجربته التي انتهت الى « نور قذفه الله في قلبه » ، وهذا ابن سينا يرسم لنا تاريخ حياته مع تركيز أكثر على الناحية العلمية من ذلك التاريخ ، وهذا ابن رضوان المصري يقوم بنفس العملية ويصل الى نفس النتيجة .. وهلمّ جرا ، الى ابن خلدون والى ما بعد ابن خلدون ..

كل هذا لم تعد تجد له اثرا في سنة ١٩٣٠ تحت قلم الشابي الذي لم يكتب لينصح ، أو ليبرر ، أو ليكون مثالا يحتذى ، او يقتفى اثره ، وانما ليصغي الى ذاته « في سكون الليل » واضعا مسافة بينه وبينها ، راسما على الورق ردود فعله اليومية بازاء الحياة والاحياء ، فاحصا « لاناه » ولجراحاتها مراقبا للخط التصاعدي في نموها ، وعبورها الكوني وفي مدها وجزرها وسذاجتها وتفلسفها وصراعها واستسلامها ..

السنا مع « الشابي » ومنذ مرحلة ما بين الحربين العالميتين وجها لوجه وربما لاول مرة في تاريخ التراجم الذاتية العربية مع ادق وأوضح المفاهيم المعاصرة للمذكرات الشخصية التي تعرف في الغرب باسم ـ Journal intime ـ أي هذا النسق من التدوين الذاتي « المحدد » بزمان ومكان ، والذي يمارسه صاحبه يوم بيوم ، أو ساعة بساعة ، أو على الاقل بشيء من الانتظام المستمر .. والا فأي معنى لليوميات ان لم تكن خاضعة لهذا الترتيب الزمني ؟ ثم أي معنى لليوميات الشخصية ان لم تكن سبرا وتحليلا لردود الفعل الذاتية أمام الحياة ؟

والمتتبع المتأمل الفاحص لاحداث الدراسات المعاصرة قد لا يجد اهم ولا أصدق من هذا التعريف الذي ضبطه « اميال » . (Amiel)

« Ne faut-il pas que toute la vie subjective , plus immédiatement Saisie dans sa conscience que racontée dans ses acles , rentre dans le Journal »

تأكيد كهذا على ضرورة رسم اختلاجات الحياة الباطنية في اليوميات قد وضع الحد الفاصل بين اليوميات الشخصية وبين ما يوضع عادة تحت هذا العنوان من تراجم وسير واعترافات ..

ونحن أن أردنا أن نلتمس خطاتصاعديا فيما كتب ابتداء من مرحلة الشابي من طرف علي الدوعاجي في « جولته بين حانات البحر الابيض المتوسط » ومن طرف بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » الى ما كتب فيما بعد من طرف أمين نخلة وطه حسين والعقاد والحكيم ونعيمة وأحمد أمين ويوسف السباعي وكامل الشناوي وغيرهم لامكن ان نلاحظ ما يلي :

ـ أولا : المذكرات العربية المكتوبة بعد الشابي والدوعاجي وبيرم قد تطورت تطورا ملحوظا دون ان تفقد في جلها الفكرة القديمة للتراجم العربية التي كانت تصاغ في أخريات حياة المؤلف دفعة واحدة لا يوما بعد يوم ، وبشكل مباشر على نحو ما فعل الشابي . لهذا يمكن القول بأن التطور الذي نعنيه بعد الشابي في المذكرات العربية كان يتمثل في التركيز على ذلك المؤلف لا على الوعي الكامل باستقلالية فن المذكرات من حيث هي تدوين تدريجي منتظم لاحداث يومية معاشة ضمن أطر معينة ، فهذا الدوعاجي يكتب عن الرحلة بعد الرحلة ويتحدث عن نفسه وعن الناس بشكل لم يعرف من ذي قبل عند الرحالين العرب كابن جبير أو النيجاني أو ابن بطوطة ـ كذلك بيرم التونسي في « مذكرات المنفى » يرسم بدقة وضعيته في المنفى ويقدم أروع لوحات الالم الانساني ، ولكن بعد مرور الازمة وبشكل يتسم بالروح القصصية الاصيلة ..

وكذلك طه حسين يتكلم بصيغة الغائب ويكتب مذكراته على الطريقة المعروفة في التراجم العربية لكن مع التركيز على الذات بشكل لم تعرفه التراجم العربية في اقتصارها على تسجيل انجازات الخارجية للذات ..

ثم احمد امين ، والعقاد ، وجل من كتب المذكرات وابدع في كتابتها وما قيل عن طه حسين يقال عن هؤلاء .

ثانيا : ثورة كبيرة على صعيد الاشكال قد طرأت على أدب المذكرات بعد الشابي والدوعاجي وبيرم . وأعني بها هذا النمط الجديد الذي خلقه أمين نخلة في « المفكرة الريفية » وكان فيه نسيج وحده ثم ما فاجأنا به يوسف السباعي في كتابه « من حياتي » وأخيرا هذه الطرافة في الشكل والمضمون التي خلقها كامل الشناوي بهذا الثالوث من أدباء الشرق وكذلك بصاحب « مذكرات دجاجة » ايضا ، قد تحققت ثورة كبرى على صعيد المبادرات التي ظلت مبادرات الى يوم الناس هذا في مجال تفجير الهياكل القديمة التي كانت تصاغ فيها التراجم العربية .

والمتأمل في ثورة الاشكال التي ابتدعها هؤلاء الادباء يحس بأن كافة الاعذار التي يقدمها النقد العربي المعاصر تبريرا لصمته هي مجرد أعذار فقط ذلك اننا مع أمين نخلة في « المفكرة الريفية » نقف للمرة الاولى امام مذكرات في شكل قصائد منثورة على نحو ما نعرفه عند « فرنسيس بونج » (Francis Ponge) في كتابه Leparh - pu'ses choses من جهة وعلى نحو الكمات الجامعة التي كتبها الفريد دي فينيي A . devighy في مذكراته وبول فاليري Paul Valery وغيرهما ..

وقد يبدو هذا المنحى غريبا من أمين نخلة بالذات الشاعر الكلاسيكي الذي لم يأتي بجديد في قصائده المنظومة الموزونة المقفاة ..

وما قيل عن نخلة ، يمكن ان يقال عن كامل الشناوي الذي لم يخرج عن اهابه حين سجل مذكراته تحت عنوان « ساعات » وهي مذكرات خالية من أطار الزمان والمكان ، وقصائد متحررة من الوزن والقافية ، مع تركيز على حبيبة أحبها الشاعر وجعل من كل «ساعاته» نافذة بطل منها عليها .. دون اشارة الى اسمها وكأنه كان يراها ويرى كل العالم من خلال غيمة شفافة .

ومع يوسف السباعي ، نجد أفقا آخر ينفتح فجأة في المذكرات ، هذا الافق هو المقالة الفكهة الباسمة المكتوبة بقلم قصاص ذكي لا يريد ان يتجهم كالشابي ، أو يتكلم بجدية أحمد أمين ورصانته . وانما يريد ان ينظر الى حياته وطفولته وشبابه من خلال نكتة قد تذكرك بروح المازني وبروح على الدوعاجي . ولكنها نكتة اخذت شكلا صحفيا مقاليا خفيفا .

أما صاحب « مذكرات دجاجة » فهو في مذكراته المفعمة بالنقد الاجتماعي والسياسي يتخلى عن الشعر والمقالة والتجهم معا ويعيد الى أذهاننا جو « كليلة ودمنة » لكن في شكل مذكرات طريفة الى أقصى حد ..

محمد مصمولي

● بعض مراجع :

ـ « العبقرية والموت » تأليف عبد الرحمن بدوي

ـ « مذكرات المنفى » تأليف محمود بيرم التونسي (الشركة التونسية للنشر والتوزيع) .

ـ « جولة بين حانات البحر الابيض المتوسط » تأليف علي الدوعاجي .

ـ « مذكرات » تأليف : أبو القاسم الشابي (الدار التونسية للنشر) .

ـ مجلة (الفكر) ـ التونسية ـ .

ـ مراجع أخرى .

- Le Roman et La nouvelle en Tunisie
Ferid Ghazi (M.T.E)
- Les Journaux intimes - par Miehéle Leleu
(Presses universitaires de France)
- Alfred de vigny (Journal d'un poete) Bordas , 1949
- Henri de Montherlant (Carnets) Laffont .. 1947
- Journal des Faux - Monnayeurs (Gallimard)
- Henri - Frédéric Amiel (Journal intime
- Henri de Montherlant (Carnets) Laffont ..